مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 3 (رت 72) السنة: 2023

تشظّي الهُويّة وانشطار الشّخصية في رواية (ثلوج من رخام) لمحمد ديب

The fragmentation of identity and the splitting of personality in the novel (Snows of Marble) by Muhammad Deeb

ماجدة نعيو[1]
مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة
جامعة باتنة-1-
naioumadjda@gmail.com

تاريخ الوصول 2022/07/17 القبول 2023/02/18 النشر على الخط 2023/03/15
Received 17/07/2022 Accepted 18/02/2023 Published online 15/03/2023

ملخص:

يفرض التعايش مع الآخر نوعا من الصراع على مستوى الهوية وهو ما ينعكس على الشخصية التي تتأثر بهذا الصراع، حين تجد نفسها ضائعة ومنفية وسط الثقافات الموازية والتي تهدد خصوصيتها الثقافية، لذلك تعمد الرواية الجزائرية باللسان الفرنسي إلى تصوير هذا النوع من القضايا النابجة عن علاقة الأنا بالآخر والتي تطرح كطريقة لمقاومة الآخر في بعده المركزي ،وما ينجر عن هذا الاصطدام الحضاري والثقافي من اغتراب واستلاب وتشظّ .

لذلك تسعى هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن حالة التشظّي والانشطار التي تعانيها الذات المغتربة في الفضاءات الأجنبية في رواية ثلوج من رخام لكاتبها محمد ديب.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الثقافة، الشخصية، التشظّي، الانشطار.

Abstract:

Coexistence with the other imposes a kind of conflict at the level of identity, which is reflected in the personality affected by this conflict, when it finds itself lost and exiled in the midst of parallel cultures that threaten its cultural privacy, so the Algerian novel in the French tongue depicts this type of issue resulting from the relationship of the ego with the other. Which is presented as a way to resist the other in its central dimension, and what results from this civilizational and cultural collision of alienation, alienation and fragmentation.

Therefore, this research paper seeks to reveal the state of fragmentation and fragmentation experienced by the alienated self in foreign spaces in the novel Snows of Marble by its writer Muhammad Deeb.

Key words: Identity, culture, personality, fragmentation, fission.

[1]- المؤلّف المراسل: **ماجدة نعيو** البريد الإلكتروني: **naioumadjda@gmail.com**

1. مقدمة:

ظلّت الآداب التي كتبت بلغة المستعمر آدابا مهمّشة، لم تستقر في فكر النقاد ولا حتى عند بعض الفئات من القراء، إذ ينظر إلى أصحابها نظرة دونية، حيث مورس عليها الإقصاء والتهميش في كثير من الأحيان، كما طرحت إشكالات عدّة على مستوى التصنيف وعلى مستوى الاتجاهات الأدبية والموضوعاتية، ومن بين قضاياها الأكثر طرحا قضية الهوية، لذلك تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن تشظي الهوية وانشطار الذات في رواية محمد ديب(ثلوج من رخام) .

ومن بين الأسئلة التي تطرح نفسها بقوّة: إلى أي مدى انعكس الفضاء الأجنبي على البطل؟ ما العراقيل التي تعرّض لها البطل فأسهمت في ضياع هويته؟ هل حقق البطل هويته داخل المجتمع الجديد؟ ما مظاهر الهوية المتشظّية في هذه الرواية؟

من أجل الإجابة عن هذه التساؤلات وأخرى سنعتمد على المنهج الوصفي التحليلي مع الاستعانة بالمقاربة الثقافية للتعرّف أكثر على علاقة البطل بالفضاء وانعكاسه على مؤشرات هويته. ولكن قبل ذلك لابد من الوقوف على خصوصية الأدب الجزائري باللسان الفرنسي واستنطاق بعض العتبات الاصطلاحية.

1- من هنا البداية (الأدب الجزائري باللغة الفرنسية ومسألة التصنيف)

شكّل الأدب الجزائري باللسان الفرنسي حالة إبداعية استدعت أقلام النقاد للولوج إليها وتميزت بين الرفض والقبول وكان أكثرها مسألة التصنيف التي تعدّت إلى التعنيف أحيانا. فقد نشأ الأدب الجزائري بالتعبير الفرنسي في ظروف خاصة(سياسية، ثقافية، اجتماعية...) فكان لابد أن ينعكس هذا الواقع على ثقافة الشعب الجزائري التي كانت في تلك الحقبة أمام احتمالين(الأمية أو تعلم لغة الآخر(الفرنسي)، في هذا الواقع ولد الأدب الجزائري بلغة فرنسية، فقد كان الاحتلال الفرنسي للجزائر احتلالا من نوع خاص « استهدف الإنسان وجودا وهوّية من خلال القتل والنفي والتشريد وتشجيع الاستيطان الاستعماري ومحاولة القضاء على لغته»[1] حيث استجمع الفرنسيون كل قواهم من أجل« القضاء على مصادر الثقافة الوطنية، فهدم كثيرا من المساجد، وحوّل أعدادا كثيرة منها إلى كنائس أو ثكنات أو مستوصفات»[2]، كما عملت على اضطهاد اللغة العربية واعتبرت لغة أجنبية بحكم القانون(8من مايو 1936)، ويأتي هذا القانون ضمن سلسلة القوانين التي سنّها الاحتلال الفرنسي لمحاربة اللغة العربية وجعل اللغة الفرنسية اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد. وشرعت الحكومة الفرنسية في فتح المدارس أمام الجزائريين من أجل« تعليمهم لغة الدولة المحتلة، وآدابها وعلومها، حتى يسهل ابتلاعهم، ويسهل إدماجهم»[3]فالتعليم الفرنسي لم يكن هدفه التنوير بل لتكريس ما يخدم مشروعهم القومي والثقافي الحضاري.

في ظل هذه الظروف لم يجد الجزائريون الذين ولدوا في هذه الأوضاع إلا لغة الفرنسيين أداة للتعبير عن قضاياهم الاجتماعية، إذ أن هذا الأدب « يحاول أن يقوم بدور إعلامي يهدف إلى تعريف القارئ بحقيقة ما يجري في الجزائر، ويحسّسه بفداحة المشكلة، ويدفع به إلى اتخاذ موقف فاعل ومؤثر على مجريات الأحداث من أجل إيقاف دوّامة العنف، وإيجاد تسوية سلمية للأزمة، تحقن الدماء وتحفظ للناس حياتهم وممتلكاتهم»[4] فأصحاب هذا الاتجاه لم تكن غاياتهم أدبية فنية بقدر ما كانت رواية تسجيلية لما يحدث في الجزائري.

---

[1]- محمد علي داهش، دراسات في الحركات الوطنية والاتجاهات في المغرب العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د | ط، ص03.

[2]– محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، د | ط، 1999، ص20.

[3]– أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د | ط، 2001، ص141.

[4]– أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي" نشأته وتطوّره وقضاياه"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د | ط، 2007، ص426.

بناء على ما سبق، طرحت قضية التصنيف على الساحة النقدية، فاختلف النقّاد بين من عدّ هذا الأدب فرنسيا لاعتبار لغوي، ومن عدّه أدبا جزائريا حسب موضوعاته وقضاياه التي تمسّ الفرد الجزائري، وما يعانيه من ويلات في ظل الاستيطان الفرنسي. من أجل ذلك فإنه « لا يعتبر في كليّته مسألة يؤسف لها، فكل من الأدبين الفرنسي والجزائري قد استفادا من الظروف التي كانت قائمة، إذ أسهمت في إثرائها، فالتبادل المباشر للأفكار والأحاسيس والمشاعر، وكذا التفاعل بين الثقافة الفرنسية والتراث العربي- الإسلامي الجزائري، كل هذه قد تركت آثارا إيجابية على كل من الأدبين الفرنسي والعربي»[1] فالغاية من كتابات الجزائريين- حسبهم- هي غاية كشفية تتخذ كل الأدوات الممكنة للتعبير عن هذا الواقع، لذلك فإنه ليس من العيب في شيء استغلال هذه اللغة لأغراض استراتيجية وطنية اقتضتها الحاجة.

والمهم من كل هذا أن الكتابة الجزائرية باللّسان الفرنسي ظلت في أحيان كثيرة تعبّر عن أصالة أصحابها، وإن عبّروا بلغة أجنبية فإن مقدار أصالتهم« يقاس في هذه الحالة بدرجة المساهمة في مشروع التحرّر على المستوى الثقافي وكذلك التعبير عن الانتماء والالتزام بقضايا المجتمع»[2]فلا أحد يستطيع إنكار دور هذا الأدب في التعريف بأوضاع الجزائريين خاصة أثناء الثورة وما لعبه من دور إشهاري لمأساة الجزائريين في تلك الحقبة الزمنية.

ويجد عبد الكبير الخطيبي المبرّر لهؤلاء الكتّاب في كتابه الرواية المغربية، فالكاتب الجزائري إن تعصّب للكتابة بلغته« فإنه يقضي على نفسه بأن يتحدّث أمام جمهور من الصمّ، ذلك أن الشعب غير متعلّم، ولا يقرأ أي لغة والمتعلّمون لا يفهمون إلا لغة المستعمر، وإذن لم يبق له إلا مخرج واحد، يقدم له على أنه مخرج طبيعي، وهو الكتابة بلغة الاستعمار. وفي هذه الحال، لا يعدو أن يغيّر مأزقا بآخر»[3] ، فالروح التي كتبت بها هذه النصوص هي روح تنضح بالوطنية « فهي وإن توسلت الفرنسية لغة، فإنها تبقى روحية التعبير، والعلاقة بالمرجعي، مندرجة في التجربة الروائية العربية، وعلامة على معاناة روائية في توظيف تقنيات السّرد العامة في تشكيل عالم ناطق بخصوصيّته»[4]ويقول مراد بوربون في هذا الشأن: «إن اللغة الفرنسية ليست ملكا خاصا للفرنسيين، وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصّة؛ بل إن أيّة لغة إنما تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطوّعها للخلق الأدبي ويعبّر بها عن حقيقة ذاته القومية»[5] لذلك علينا عدم التضييق على هذه الفئة من الكتاب، التي كانت مجبرة على سلوك هذا الاتجاه، فالمهم هو الموضوع والقضية بعيدا عن أي شكليات، وبحث في القشور بعيدا عن لبّ القضية.

صحيح أنه يمكن القول إن اللغة وقفت عاجزة عن التعبير عن مكبوتات هؤلاء الكتّاب ولم تستطع أن تكون معادلا موضوعيا للفكر والعاطفة ذلك أن هذا الكاتب باللغة الفرنسية« عجز عن الأداء الكامل للمشاعر العربية الإسلامية، وذلك للانفصال بين اللغة المعبّرة والواقع، فإن للغة علاقة كبيرة بالعقلية وبالجانب الوجداني والانفعالي من الإنسان»[6] ، غير أن هذا العجز لم يمنعهم من حضور وطنيتهم وتفاعلهم الشديد مع قضايا وطنهم.

أما مترجم ثلاثية محمد ديب سامي الدروبي فشبّههم بالأطفال الذين يشعرون بما «يشعر به طفل فصل عن أمه فهو ما ينفكّ سائلا عنها وجوه أمهات أخريات تريد إحداهن أن تحتضنه ولكنه لا يرى فيها أمه، فهو يُعرِض عنها، أو يستسلم لها على مضض وفي

[1]- عايدة أديب بامية، تطوّر الأدب القصصي الجزائري(1925-1967)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د|ط، 1982، ص 52.

[2]- علي محمد الشويهدي، اللغة الفرنسية كأداة التعبير الأدبي المغاربي وقضية الأصالة، مجلة الباحث، ع1، كلية الآداب، جامعة قار يونس، ليبيا، ص 91.

[3]- عبد القادر شرشار، الرواية البوليسية" بحث في النظرية والأصول التاريخية، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، د|ط، 2000 . ص 65.

[4]- يمنى العيد، فن الرواية العربية" بين خصوصية الحكاية وتميّز الخطاب"، دار الآداب، بيروت، ط|1، 1998، ص93.

[5]- محمد الطمّار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د|ط،1961، د|ط، ص450.

[6]- محمد الطمّار، تاريخ الأدب الجزائري، مرجع سابق، ص452.

حسرة»[1] ويصرّح مالك حدّاد(وهو أحد هؤلاء الكتاب الذين اتخذوا اللغة الفرنسية وسيلة للكتابة والتعبير) قائلا: «أنا أرطن ولا أتكلّم، إن في لغتي لكنة، إنني معقود اللسان... أنا لا أغني ... فلو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا... نعم يا أراجون، هذه هي المأساة اللغة... لو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا... لقد شاء الاستعمار أن يكون في لساني آفة، أن يكون معقود اللسان»[2]، ففي حديث مالك حدّاد شجون كبير، حيث شبه هذه اللغة بالآفة الفتاكة، التي لا فكاك منها، فهي كالدواء المرّ الذي لابد من تناوله.

على طرف مقابل، عبّر نقاد آخرون عن رفضهم تصنيف هذا الأدب كأدب جزائري، فنجد الناقد عبد المالك مرتاض ينفي هوية هذا الأدب الجزائرية بقوله «ولو أردت أن أقول ما أعتقد لقررت بأن هذا الأدب غريب في نفسه، ومنفي في وطنه الذي كتب فيه، ولم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء نار الثورة»[3]، فنفي جزائرية هذا الأدب من قبل مرتاض فيه إغفال لدوره في إيصال صوت الجزائر في تلك المرحلة، ثمّ أين هو موقع الأدب العربي من مجريات الساحة السياسية في ذلك العهد؟ فكتّاب ذلك العهد وقعوا بين أمرين أحلاهما مرّ.

كما عبّر الطاهر وطار عن رفضه لتصنيف هذا الأدب أدبا جزائريا مستندا إلى أن هذا الأدب لم يعبّر عن حال الجزائريين وأنه لم يكن بالصدق الذي عرفه مثيله المكتوب بالعربية ذلك أن « الأدب الاشتراكي والبطل الاشتراكي لم يولدا في الجزائر إلا في الأدب المكتوب باللغة العربية»[4]، وبهذا ينفي الطاهر وطّار عن هذا الأدب جزائريته رغم تعبيره الصادق عن قضايا الجزائريين وتحمّلهم للهمّ الوطني أيام الحقبة الاستعمارية ومجازفتهم أمام المستعمر..

وممّا سبق يمكننا القول إنه ليس من العيب استغلال هذه اللغة وتطويعها واعتبارها أحد المكاسب الاستعمارية التي علينا تطويعها لأغراض استراتيجية عند الضرورة دون تشويه لواقعنا أمام الآخر. و إن كان هناك لوم فإنه يقع على من يكتبون من أجل التشويه والهدم ومن أجل إرضاء الآخر بدل الإصلاح والبناء. لذلك فإنه من الأولى الدفاع عن هؤلاء الكتّاب الذين طوّعوا أقلامهم للدفاع عن القضية الوطنية والهوية الإسلامية والعربية في وقت عزّ فيه من يساند القضية ولو بكلمة أو موقف.

2- الهُوية:

إن ارتباط الرواية بسياقها الاجتماعي القائم هو ما يجعلها تأخذ أهميتها؛ فهي الكاشف عن مجرياته وكواليسه – إن صح القول – بالنظر إلى مجاورتها للواقعي والمتخيّل معا، ولأن الرواية في تصوّر باختين (**Bakhtine**) "عالم تتعدد فيه الأصوات" فان كثرة الشخصيات الروائية تبرز الأنا والآخر ويظهر صراع الهوية جليّا، هذا عن الرواية بشكل عام، أما الرواية الجزائرية فتتميز بخصوصية الطرح الهوياتي بالنظر إلى أن موضوع القضية الجزائرية هو الحاضر الأساسي فيها والتي أخذت نصيب الأسد، فهي رواية هوية بالدرجة الأولى، ومن هنا وجب التساؤل عن ماهية الهوية لغة واصطلاحا.

يعد مفهوم الهوية من أبرز المفاهيم حضورا في العلوم الإنسانية والأنثروبولوجية، كما ترتبط بمواضيع من مثل الهجرة والاغتراب والاستعمار والصراع...الخ.

---

[1]- محمد ديب، الثلاثية، من مقدمة المترجم، ص 6.

[2]- المصدر نفسه، ص7.

[3]- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص26. نقلا عن علي محمد الشويهدي، اللغة الفرنسية كأداة التعبير الأدبي.

[4]- نقلا عن نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، ط | 1، 1981، ص 281.

2–1– لغة: الهُوية من المصطلحات الوافدة بفعل الترجمة غير أننا نجد لها أثرا في تراثنا اللغوي فالهَوية (بفتح الهاء) تعني على الصعيد المعجمي العربي القديم، وكما جاء في (لسان العرب) «ا الهوية" البئر بعيدة المهوان»[1]. وهي كما يصفها الجرجاني « الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق»[2].

فالتعريفان السابقان يحيلان إلى العمق والاشتمال والأصل. فإلى أي مدى يتطابق هذا المعنى مع المعنى الاصطلاحي؟

2–3–اصطلاحا: من الناحية الاصطلاحية فمعناها ظلّ مستعصيا بالنظر إلى ولوج المصطلح لميادين مختلفة، وتشاكل تعريفها بين الأنا في صورته الفردية والجماعية مع الآخر، وما يطرحه من اختلاف، حيث تشكَّلت الهوية بفعل عامل الزمَن والالتقاء في المكان. ومن نوازع الأنا وهاجس الآخر والفزع من وجوده.

تعرّف الهويّة على أنها« مركب مبني ومعترف به اجتماعيا، وذلك من دلالات الذات المستمدة من عضوية الفرد في فئات ما للطبقة والعرق والديانة والأمة...الخ»[3]، إذن يرتبط هذا المفهوم بأبعاد عرقية ودينية وطبقية هي التي تُذكي اختلافه، وتزيد في تميز هذه الهوية عن الأخرى. بل يمتد الأمر لتصبح الهوية هي « الأصل والجوهر، فالهُوية من (هو) بمعنى جوهر الشيء وحقيقته، وبالتّالي فإن هويّة الشيء ثوابته التي تتجدّد ولا تتغيّر تفصح عن ذاتها ما بقيت الذات على قيد الحياة»[4]فكأن حقيقة الإنسان لا تبرز إلا ضمن نطاق هويّته المتمايزة والمختلفة عن الآخر.

فالعلاقة مع الآخر فكرة ظلت تلاحق الإنسان عبر مراحل التاريخ، وقد تلقّاها الكتّاب عبر العصور الأدبية بطريقتين: الأولى بالتبني والاحتواء والثانية الرفض لكل ما هو أجنبي لاسيما في مجتمعاتنا العربية التي ظلت تصارع هذه الفكرة فلم تستقر على رأي؛ فهي إما مستلبة أو رافضة، إذ « نجد بعض الأدباء حين يواجه بصور الشعوب الأخرى يصبح أكثر تمسكا بهويته الثقافية وأكثر استعلاء على الآخر»[5]فالشعوب العربية على وجه التحديد تعتزّ بانتمائها وهويتها وتميل إلى التغني بالأمجاد التاريخية وكل ذلك عزف على تيار الهوية العربية.

الملاحظ أن العالم اليوم شقّان(شقّ متقدّم وآخر متخلف) وتجمع بينهما علاقة حذِرة، ذلك « أن الخوف من الآخر المتفوق(الغربي) في الحاضر يثير قلق بعض الأدباء العرب فيبدو مبالغا في التمسك بهويته، كما أن بعض الأدباء الغربيين يشعرون بالقلق على هويّتهم من الآخر(المتخلّف)»[6] فهذه العلاقة المضطربة لم تكن وليدة العصر إنما لها سياقاتها التاريخيّة، فهذا التنافر« يتأثر بالسياق التاريخي، التاريخي، كما يتأثر بالسياق الثقافي، ولا نستطيع أن نغفل أثر التجربة الشخصيّة والرحلات في رسم هذه الصورة»[7]

ولعلّ هذا الصراع سيظل قائما إلى يوم يبعثون، لأنه صراع يقوم على التنافس وإلغاء الآخر بعيدا عن النظرة التكاملية والبعد الإنساني.

---

[1]– جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994.

[2]– الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.

[3]– نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية العربية" في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث للنشر، عمّان، 2007، ص11.

[4]– سعد فهد الدويخ، صورة الآخر في الشعر العربي (من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي)، عالم الكتب الحديث للنشر، عمّان، 2009، ص 25.

[5]– ماجدة حمّود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010، ص18.

[6]– المرجع نفسه، ص18.

[7]– ماجدة حمّود، صورة الآخر في التراث العربي، مرجع سابق، ص27.

3- تشظّي الهوية وانشطار الشخصية في رواية ثلوج من رخام لمحمد ديب:

3-1-ملخص الرواية:

ثلوج من رخام رواية لكاتبها محمد ديب ، يطرح من خلالها إشكالية الزواج المختلط بين رجل من الجنوب وامرأة من الشمال تقف بينهما الحواجز الثقافية، حيث يعيش الرجل غربة قاسية خاصة بعد فراقه لابنته ''ليبل'' التي تأخذ منه عنوة، مما ينعكس عليه سلبا، فيعاني قسوة الفرقة والغربة والاختلاف مما يجعله يعاني التشظّي والانشطار بين هذين العالمين، فيتملّكه الحنين إلى الحياة الأولى، بسبب أن هجرته هذه هي بطبيعة الحال حركة في الفضاء الجغرافي وانتقال من مكان لآخر، الأمر الذي يفرض بقوة مسألة أخرى، تتمثل في الزمن والانفصام بين الحاضر الذي يعيشه و الماضي الذي يحن إليه و بين المستقبل حيث العودة مستحيلة أو مؤجلة دائما. وعليه يطرح الروائي مجموعة من المسائل والقضايا الاجتماعية والثقافية في هذه الرواية.

3-2- اللغة:

تعدّ اللغة محمولا ثقافيا غني بكل عناصر الهوية، يسهل على الشخصية التعبير عن خلجات نفسها من جهة، وتأصيل هويتها من جهة ثانية، كما تعتبر دليلا وبيانا وجواز هوية للانتماء الثقافي والحضاري، ولا يمكن الحديث عن أهميتها إن عاشت الشخصية وسط عالم لا يفهمها، لذلك ستشعر الشخصية بالاغتراب الثقافي، وهو ما حدث مع (برهان) بطل ثلوج من رخام، الذي عانى من إقصاء للغته وسط هذا الفضاء الشمالي، فمسألة اللغة من الأشياء التي زادت الشرخ بين برهان ومحيطه، يقول برهان: « أتذكر أنه ذات صباح طلبت مني ليبل شيئا ما في المطبخ ولم تعرف تسميته إلا في لغتها، بسرعة أدركت عجزي في التعرف عليه»[1]، وهو ما أشعره بالعجز التام عن الحوار مع هذا المخلوق اللطيف القريب إلى روحه.

ويبقى البطل برهان عاجزا عن تعلّم لغة هذا البلد الأجنبي إما لعجز فيه أو عدم رغبة في تعلم هذه اللغة « أتفاوض في لغتي لأنّني لا اعرف لغتها»[2] فرغم حبّه الشديد لابنته إلا أن رفض لغة هذا البلد وقفت حائلا دون إيجاد حلّ يقوي الرابطة بينه وبين ابنته.

وعلى الطرف الآخر تحاول الطفلة ليبل تعلم لغة والدها وهو ما يوضّحه برهان عند حديثه عن هذه الرغبة المتواصلة « تقوم بجهود جبّارة كي تكلّمني في لغتي، وهي تظهر استعدادا جيدا لاكتسابها بسرعة، على كلّ حال أفضل مما يفعل أبوها في لغتها»[3] فرغبة ليليل في تعلم لغة والدها ما هو إلا دليل واضح على إيجاد طريقة للاقتراب منه ومن ثقافته، وأسهل طريقة لذلك وأنجع وسيلة هي اللغة التي تختزل وتختزن كثيرا من الحمولات والمكوّنات الثقافية.

كما يظهر تشظّي الهوية من خلال الصراع اللغوي القائم بين برهان وابنته، فاللغة التي تعتبر أداة للتواصل غائبة بينهما « بابا وأنا يتكلّم كل واحد منا لغته، إنها لغة أخرى، ولكنني أفهم كل ما يقوله حتى وإن لا أعرف الكلمات. كما أفهم مالا يقوله أيضا. إن الأطفال الضائعين مجبرون على الفهم، والابتسام كي لا يكون. هل أنا طفلة ضائعة؟»[4]فبرهان وابنته ليبل يقعان في صراع ثقافي عماده اللغة، واللغة أكثر عناصر الهوية حمولة ثقافية، فهي التي تعبر عن كل عناصر الهوية، وهي التي ننقل من خلالها حمولتنا الثقافية.

ورغم الاختلاف الثقافي الحاصل بين برهان وابنته ليبل إلا أنه استطاع أن يجد وسيلة للتواصل بينهما « ولكني شيئا فشيئا نسيت مخاوفي، وإلى غاية هذا الجدار اللغوي المنتصب بيننا. هي أيضا، وبلا أدنى خطأ. رويدا رويدا، اكتشفنا كلاما مشتركا عبر الآخر، الكلام

---

[1]- محمد ديب، ثلوج من رخام، دار الشهاب، الجزائر، 2011 ، ص22.

[2]- المصدر نفسه، ص11.

[3]- المصدر نفسه، ص71.

[4]- محمد ديب، ثلوج من رخام، ص 40.

الأجنبي. كلام يكفينا يوحدنا، بدا من غير المقبول في هذه اللحظة لأي تبن أن ينزلق بيننا»[1] فالمحبّة القائمة بين الوالد وابنه استطاعت أن ترمم شخصية برهان المنشطرة بين هذين العالمين، إذ شكلت شخصية ليبل بلسما لروحه التائهة المشتتة في هذا الفضاء.

3-3 التشظي والانشطار:

يحيل التشظّي لغويا إلى« تشظي الشيء : تفرق وتشقق وتطاير إلى شظايا»[2]، وهو حالة صاحبت الرواية ما بعد الكلاسيكية التي أصبحت تكتب عن المسكوت عنه(التابو) وتلقي الضوء على الفئات المهمّشة والمنفية؛ تلك الفئات التي تقع في صراع بين دواخلها النفسية ومحيطها الخارجي.

أما الانشطار فيعني الانقسام، عندما تعلن الشخصية «حالة طلاقها عن بعضها البعض، محطّمة العلائق فيما بينها ومحتفظة بحواجز فقدان الذاكرة فيما بينها في الأماكن التي يفترض أن تكون مرتبطة»[3]، وقد استخدمه فرويد «للدلالة على انقسام الإنسان على نفسه، بصورة أو أخرى»[4] مما سبق فإن التشظي والانشطار يحيلان إلى الحالة النفسية التي تسيطر على الشخصية الروائية عند كل صدام مع الآخر، حينما تتصارع الرغبات النفسية مع الواقع الخارجي، مما ينعكس على هذه الشخصية في تفاعلها مع ذاتها ومع الآخر.

إن شعور أحدهم بالانتماء يعطيه دفعا قويا نحو مواصلة الحياة والتطلع للغد بعيون كلها أمل، غير أن هذا لم يحدث مع بطلنا(برهان) الذي سيطر عليه الاغتراب والشعور بالمنفى والعزلة، يقول برهان: « ماذا نفعل بنيّتي داخل هذا الشمال اللامعقول؟ نحن من حوض المتوسط، أنت وأنا، من بلد الياسمين والبرتقال. هل سنبقى منفيين أبديين»[5]، فالكاتب أصبح منشغلا جدّا بمصيره وسط هذا الفضاء الرافض له ضمنيا، إنه يفكّر ببقية حياته هل سيعيش ما تبقى منها في هذا الحال من التهميش والإقصاء.

كما أن العلاقة القوية التي تجمع ليبل بوالدتها قد ساهمت ولو جزئيا بحالة التشظي لدى البطل، فقد لاحظ برهان تعلّق ليبل(ابنته) بوالدتها على حسابه « في مثل سنّها، فمن الطبيعي أن تعيش في وئام جسدي وروحي مع روسيا. سوى أنها لا تعرف إلا بلد روسيا، أنها لا تتكلم إلا لغة روسيا، أنها لا تحتفي إلا بأعياد روسيا، أشياء كثيرة، حواجز منتصبة بيني وبينها.»[6] ، وقد مثّل ذلك أشدّ أنواع التشظي لدى البطل وضياع هوية ابنته التي تعدّ امتدادا لهويته التي وجدها قد ضاعت في هذا المجتمع الذي لا يحفل بوجوده حتى من أقرب الناس إليه. فأمله في غرس هذه الهوية في ابنته قد باء بالفشل.

وفي السّياق ذاته يعبّر برهان عن إحساسه العميق بإقصاء هويته وسط هذه العائلة الأجنبية «إن جميع ما يخصّني، أعيادي، أكلي، لغتي، الأشياء التي شكلتني وصيّرتني مما أنا عليه، تبقى أجنبية عنها، ممنوعة عنها، أنا أحبها ولن أتصرّف مثل روسيا، سوف لن أبعدها عنها، لن أخطفها. أبدا. سوف أمنع نفسي من هذه الأفعال... إنها إهانة لليبل، تشويه لها»[7]، فبرهان يقف عاجزا عن شحن ليبل بمقومات هويته التي طغت عليها روسيا واستنسختها لنفسها فقط، ورغم الخيبة التي شعر بها البطل من هذا التهميش الذي يكاد يكون مقصودا إلا أنه كان متفهّما هذا الاختلاف بالنظر إلى البيئة التي تعيش فيها الفتاة، التي أثّرت عليها عادات وتقاليد أمها، وهو أمر طبيعي جدا بفعل غربة الفتاة ووالدها عن بلدهما الأصلي.

---

[1]- المصدر نفسه، ص17.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، ص 434.

[3]- حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر،ط | 1، 2005، ص95.

[4]- محمد ديب، ثلوج من رخام، ص 95.

[5]- محمد ديب، ثلوج من رخام، ص160.

[6]- المصدر نفسه، ص169.

[7]- المصدر نفسه، ص169.

كما يعايش البطل برهان العزلة والاغتراب حينما يجد نفسه لا يملك أي قيمة وسط هذا الفضاء الأجنبي، فهو كما يسمي نفسه عابر سبيل« إنهما سيدتان في منزلهما ولست إلا عابر سبيل، طبعا أستجيب لندائهما في حالة ما بدا لهما أن تصليحا أو انجازا مالا يسند عمله إلا لرجل، ولكن تحت طلبهم، ولا أقوم بتلك الأعمال إلا تحت توجيهاتهما»[1]، إذ تحاصره الغربة ويجد نفسه تائها وسط هذا الكيان.

وقد فكّر البطل كثيرا في الحصول على مكانة وسط هذا الفضاء الأجنبي، ففكّر بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة وفي الأخير استهدى إلى فكرة ربما لم تخطر ببال أحد من قبل « ولكنّني فكرت مباشرة بأنني لن أستولي على مكان أحد. توجد أماكن كثيرة في هذا البلد. كاد الوضع أن يكون كذلك، ولكن مهما كانت الأرض فارغة ومنكوبة، يكون قد سبقك إليها شخص، ولهذا الشخص حقوق عليها، فكّرت " وحبّ امرأة؟ ألا يمنحك حقوقا؟ ألا يمنحك هذه المكانة التي تبحث عنها؟ قوة الحبّ»[2]، فهل يشفع الحبّ للبطل في أخذ حيز مكاني بينهم، إن زوال الحواجز بينه وبين روسيا جعله يفكر أنه أصبح جزءا من هذا المجتمع، ويستطيع العيش فيه بكامل حريته وحقوقه، غير أن كل أحلامه باءت بفشل ذريع بعد أن صدم بالواقع وبعد أن أفلت شمس حبهما.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد تحول حب برهان وروسيا إلى سراب، فبعد تلك المحبّة التي جمعتهما وتأسيسهما لحياة مشتركة رغم الاختلاف الثقافي القائم بينهما، بدأ الخلاف يدبّ شيئا فشيئا إلى حياتهما الزوجية واستحال إلى حرب معلنة حينا ومضمرة أحيانا أخرى« لا شيء. لم يعد للأحلام مكان، تخلّصت الأيادي نفسها والنظرات نفسها والأفواه نفسها والأجساد نفسها من حرارة الآخر وطعمه ولطفه»[3]، فدوام الحال من المحال، والقلوب متقلّبة مجبولة على الملل والرتابة بعد الهيام والشغف، مما أسهم في تأجيج المشاعر السلبية بين الزوجين لتصل إلى طريق مسدودة. يقول برهان: « إذا أمعنت التفكير، أقول إنها حرب، لقد افترقنا، روسيا وأنا، يائسين من حربنا، الحرب المتواصلة، ولكن بداخلي لم نستطع مواصلة تلك المعاشرة، وفقدت ليبل، بقي هذا الشيء الوحيد، شيء ثابت، لطخة دكناء، حفرة تجري كل أفكاري لتلقي بنفسها داخلها. بقيت بتلك الحفرة في رأسي. هل سأراها يوما؟ حينما تصبح كبيرة. ربما. حينما يصبح في مقدورها أن تبحث عنّي. حينما تصبح حرّة في تنقّلها، ستبحث عنّي. ستفعل....إن تغذية هذا الأمل، يعني إيهام نفسي بسراب»[4]. حيث بدأ الاختلاف الثقافي والاجتماعي يلقي بظلاله على حياتهما العائلية، فقد أصبحت جحيما لا يطاق، بعد سلسلة المعارك اللفظية والنّفسية، بعد أن قتل الخلاف كلّ ودّ بين الزوجين واستحال إلى سواد يطبع العلاقة بينهما، والذي راح ضحيّته هذه الفتاة الغرّة، التي لا ذنب لها سوى والديها المغتربين عن بعضهما البعض، الذين لم يجدا أرضية للتفاهم سوى بتصعيد الموقف دون النظر إلى مصير أو مستقبل ابنتهما، التي ستدفع الثمن غاليا في أيامها القادمة. إن البطل متمسّك بحلم أن يحتضن ابنته يوما في عالمه وفضائه الخاص لبعيد عن روسيا، إنه قد خطط لمستقبله بعيدا عنها، وهو ما يدلّ أن الرابط الروحي والعاطفي قد انتهى إلى غير رجعه، مادام يرسم أحلامه ومستقبله الخاص دون وجودها.

ويسيطر الصراع بين روسيا وبرهان على مجريات الرواية دون الوصول إلى حلّ، في ظل غياب ثقافة الاعتذار « لا أعرف من منا نحن الاثنان يجب أن يتوسل المغفرة من الثّاني. لم آخذها بين ذراعيّ. ميت ممدد في مكانه، جامد، بارد، لحدّ هذه اللحظة أنا هو هذا الميّت. وحده الموت يجمد شخصا بهذه الطريقة.»[5] فبسبب المشاكل التي تحدث بين هذين الزوجين وجدا نفسيهما أمام باب مسدود ينذر بفشل

[1]- المصدر نفسه، ص179

[2]- المصدر نفسه، ص 187.

[3]- المصدر نفسه، ص 196.

[4]- محمد ديب، ثلوج من رخام، ص 193.

[5]- المصدر نفسه، ص 114.

العلاقة ووصولها إلى نهاية مسدودة، مما جعل برهان يشعر بالضياع والتشظّي بين عالمه وعالم روسيا. ويقف كل منهما على جانب بعيد عن الآخر.

فلم يبق للبطل في هذا العالم إلا ابنته، التي تعدّ ثمرة الحبّ والزواج الذي جمع بين روسيا وبرهان، إذ وجد البطل نفسه يعاني حالة اغترابية بين عالمين مختلفين ثقافيا« ليبل في طرف، أمي في الطرف الآخر، هناك في بلدي، وأنا بينهما»[1]، فهذه الحالة النفسية جعلت البطل يفكّر مليّا في والدته المريضة هناك في بلده الأصلي، لقد وقع بين اختيارين أحلاهما مرّ، إما أن يبقى مع ابنته وقد يخطف الموت أمّه دون أن يراها، أو يذهب إلى أمّه ويفقد ابنته الواقعة تحت سيطرة والدتها إذ قد يكلّفه الموقف الأخير فقدانها للأبد.

4- خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية نصل إلى جملة من النتائج لعلّ أبرزها:

1. أكّدت الرواية الجزائرية باللسان الفرنسي أهميتها على الساحة الإبداعية، ونقشت اسمها بحروف من ذهب نظير ملامستها لقضايا الإنسان في شتى بقاع المعمورة.
2. ظلّت مسألة تصنيف الرواية الجزائرية باللسان الفرنسي دراسة ممجوجة إن صحّ القول لم يصل فيها النقّاد إلى رأي قارّ ونتيجة نهائية، فالأدب في حقيقته إنساني بغض النظر عن اللغة التي كتب بها.
3. صوّر الأدب الجزائري باللسان الفرنسي معاناة الجزائريين أثناء الحقبة الاستعمارية كما ظل مواكبا لقضاياهم بعد الاستقلال وهو ما يؤكد وطنيتهم، كما انتقلوا للتعبير عن قضايا العالم كلّه وهو ما منح أدبهم صبغة عالمية وإنسانية.
4. يقوم خطاب الهوية على مبدأ التضاد والاختلاف، والتناقض بين الأنا والآخر مما يسهم في تخبّط الشخصية خلال مسار العمل لروائي. فقد عانى البطل الشتات بين عالمين: بلده الأصلي وبلد ابنته وحبيبته روسيا. مما انعكس على شخصيته بالسّلب.
5. يحدث التشظي عند شعور الذات بالإقصاء وعدم الانتماء وإحساسها العميق بالرفض والتهميش من قبل الآخر.
6. سيطرت الخيبة على البطل في كل مجريات الرواية، خيبة نفسية وجودية واجتماعية ثقافية.
7. وقفت اللغة حاجزا في كثير من أطوار الرواية أمام البطل لإثبات وجوده خاصة أمام ابنته.

5. قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

1) محمد ديب، ثلاثية الجزائر، تر: سامي الدروبي، دار الوحدة للطباعة والنشر، لبنان، د|ط، 1985.
2) محمد ديب، ثلوج من رخام، دار الشهاب، الجزائر ، د|ط،2011.

ثانيا: المراجع

1) أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د|ط، 2001.
2) أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي" نشأته وتطوّره وقضاياه"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د|ط، 2007.
3) مال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994.
4) حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر،ط|1، 2005.

[1]- المصدر نفسه، ص 25.

5) سعد فهد الدويخ، صورة الآخر في الشعر العربي (من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي)، عالم الكتب الحديث للنشر، عمّان، 2009.

6) الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.

7) عايدة أديب بامية، تطوّر الأدب القصصي الجزائري(1925–1967)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د|ط، 1982.

8) عبد القادر شرشار، الرواية البوليسية" بحث في النظرية والأصول التاريخية والخصائص وأثر ذلك في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د|ط، 2000.

9) ماجدة حمّود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010.

10) محمد الطمّار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د|ط، 1961.

11) محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، د|ط، 1999.

12) محمد علي داهش، دراسات في الحركات الوطنية والاتجاهات في المغرب العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د|ط، 2005.

13) نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية العربية" في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث للنشر، عمّان، 2007.

14) نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، ط|1، 1981.

15) يمنى العيد، فن الرواية العربية" بين خصوصية الحكاية وتميّز الخطاب"، دار الآداب، بيروت، ط|1، 1998.

ثالثا: المعاجم

1) جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994.

رابعا: المقالات:

1) علي محمد الشويهدي، اللغة الفرنسية كأداة التعبير الأدبي المغاربي وقضية الأصالة، مجلة الباحث، ع1، كلية الآداب، جامعة قار يونس، ليبيا.2009.